البحـوث
والـدراســــــات

أيام الولائم وعادة الضيافة
ملامح من المجتمع التقليدى كما صورته يوميات الجبرتى

د. ناصر أحمد إبراهيم

أستاذ مشارك - كلية الآداب - جامعة قطر

أيام الولائم وعادة الضيافة

ملامح من المجتمع التقليدي كما صورته يوميات الجبرتي

د . ناصر أحمد إبراهيم(*)

ملخص

شكلت "عادة الضيافة" على المستوى العام ، التي صاحبت "أيام المواسم" أو " أيام الولائم" ، على نحو ما عرفتها المصادر الأدبية ، عادة قديمة ، رصدت لها الدولة بعض الأوقاف ، كما قامت بها عائلات كبيرة ، تلك التي تأصل دورها من جيل إلى جيل في الحفاظ على هذه الممارسة الاجتماعية .

تسمح دراسة هذه المسألة بتحليل شبكة العلاقات الاجتماعية ، ومقاربة التمايزات الاجتماعية والثقافية التي يمكن أن نلاحظها مع حالة التعارض بين بذخ الموائد الأميرية وكثرة الخدم والأعوان المنوط بهم الإشراف على إعداد تلك الموائد وما يُحاط بها من أبهة المكان وملابس الخدم ، وبين موائد الفقراء وبساطتها .

لا يُحاول هذا المقال رسم صورة تفصيلية لعادة قديمة مثل "عادة الضيافة " والأيام المرتبطة بها ، بقدر ما يُراهن على عمل مقاربة حول دلالتها في المضمون الثقافي الاجتماعي ، وتحديداً إبان فترة التحول التي مرت بها مصر عند منعطف القرن التاسع عشر ، وهى الفترة التي شهدت تقويض أركان المجتمع التقليدي الوسيط ، لصالح حداثة جديدة ، حداثة فرضت شروطاً مختلفة للحياة ؛ أنشأت عبرها الدولة المركزية مؤسسات حديثة ، وبدء نمو قطاع الخدمات المؤسسية برعايتها ، وانتهاج سياسات عملية وترشيدية ، كانت في مجملها متناقضة مع النظام المملوكي ومنظومته الاجتماعية والايديولوجية . والدراسة تلفت الانتباه الى أثر التغيرات في شكل

(*) أستاذ مشارك- كلية الآداب - جامعة قطر

السلطة وتوجهاتها على تغير بعض العادات الاجتماعية التي كان من بينها دون شك "عادة الضيافة" .

Abstract:

The "hospitality habit" on the general level, which accompanied "days of seasons", formed an old habit, for which the state allocated some endowments, as well as big families, those whose role is rooted, from generation to other, in the preservation of this social practice.

The study of this issue allows analyzing the network of social relations, and approaching of social and cultural distinctions that we can observe with the contradiction between the extravagance of the tables of the elite, the abundance of servants, the splendor of the place and the carefully designed clothes of the servants, and between the tables of the poor and their simplicity.

This article does not attempt to paint a detailed picture of an old "hospitality habit" and its usual days, as such as it aims to develop an approach about its importance in the cultural and social context, specifically during the transformation period in the early nineteenth century. This period of transformation witnessed the undermining of the foundations of the traditional mediating society, and its replacement a new modernity thatimposed different conditions of life.As known, the central state established modern institutions, and the same period passed with the beginning of the growth of the institutional services sector under its auspices, as well as its adoption of practical and rationalizing policies. These changes were, in general, contradictory to the Mamluk regime and its social and ideological system. The study draws attention to the effect of thesedevelopments in the form of authority and its trends on changing some social customs, among which was undoubtedly the "hospitality habit".

تعد صفة الكرم والعطاء واستضافة الأقرباء والأصدقاء والغرباء والمسافرين ومن إليهم ظاهرة إنسانية ؛ إذ لا يوجد مجتمع من المجتمعات ، سواء في الشرق أو الغرب ، لم تتوافر فيه هذه الظاهرة ، وإن تباينت مستوياتها وطرائقها وما ارتبط بها من سلوكيات وترتيبات ، وطبيعة الأدوار التي يقوم بها أناس معينون في تقديم الضيافة في سياق آداب وطقوس معينة ، تستند جميعها فى تشكلها لطبيعة ومضمون التراث الثقافي والاجتماعي ، المتباين بطبيعته من مجتمع لآخر . إن عادة الضيافة كظاهرة اجتماعية تمارس فى شئون حياتنا اليومية ، ولا يمكن فهم طرائقها سوى فى سياق خصوصية الثقافة السائدة فى كل مجتمع ، ومن هنا تصبح دراستها مدخلاً أساسيًا لفهم بعض تجليات التطور الثقافي والاجتماعي في سياقات معينة .

والحقيقة أن دراسة مثل هذه الجوانب فى مجال الدراسات التاريخية والاجتماعية بدأ يأخذ ، منذ سبعينيات القرن الماضي ، اهتمامًا جديًا ، وتصاغ له بعض المحاولات المنهجية التي تؤسس لحقل[1] معرفي مستقل حول " أنثروبولوجيا الطعام" ، " تاريخ التغذية" ، "تاريخ الذوق" ، و"تاريخ طقوس الطعام"[2] ، يُركز ، لا على الأطعمة أو المطابخ ، وإنما على معنى الطعام وما ينتجه من آداب وطقوس وعادات أصيلة حول إعداد الموائد أو طقوس الاستقبال وقيمة الاحتفالات العامة ، وما تُضفيه تلك الطقوس من سحر ومعنى إلى علاقة الناس بمضيفهم . الطعام هنا يؤدي وظيفته بشكل فعال بوصفه نسقًا من أنساق التواصل ، ومعبراً في الوقت ذاته عن جانب من النسق الثقافي للناس في كل مجتمع .

والمعروف أن "عادة الضيافة" على المستوى العام ، والتي صاحبت "أيام المواسم" أو " أيام الولائم" ، كما عرفتها المصادر الأدبية ، شكلت عادة قديمة ، رصدت لها الدولة بعض الأوقاف من جانب ، وقامت بها ، من جانب آخر ، عائلات كبيرة ، تأصل دورها من جيل إلى جيل في الحفاظ على هذه الممارسة الاجتماعية الكريمة .

إن دراسة هذه المسألة يمكن أن تسمح بتحليل شبكة العلاقات الاجتماعية ، كما تجعلنا نقارب التمايزات الاجتماعية والثقافية التي يمكن أن نلاحظها مع حالة التعارض بين بذخ الموائد الأميرية وكثرة الخدم والأعوان المنوط بهم الإشراف على إعداد تلك الموائد وما يُحاط بها من أبهة المكان وملابس الخدم ، وبين محدودية مائدة زاد الفقير ، في الجانب الآخر من الصورة ، والأدوات الأكثر بساطة فى تقديم واجب الضيافة ، واكتفائه بشكل بسيط من الاستقبال ، وقيامه بنفسه أو الاستعانة ببعض أفراد عائلته خلف هذا المشهد الاستقبالي البسيط .

هدف المقاربة

لا يُحاول هذا المقال رسم صورة تفصيلية لعادة قديمة مثل "عادة الضيافة " والأيام المرتبطة بها ، بقدر ما يُراهن على عمل مقاربة حول دلالتها في المضمون الثقافي الاجتماعي ، وتحديداً إبان فترة التحول التي مرت بها مصر عند منعطف القرن التاسع عشر ، وهى الفترة التي شهدت مخاضاً قوياً ، تزلزلت معه أركان المجتمع التقليدي الوسيط ، ودمرت إطره ، لصالح حداثة امتدت متغيراتها على مدار القرن التاسع عشر ، حداثة فرضت شروطاً مختلفة للحياة ؛ أنشأت مؤسسات حديثة دارت حول فكرة الدولة المركزية ، وبدء نمو قطاع الخدمات المؤسسية برعايتها ، وما انتهجته من سياسات عملية وترشيديه ، كانت في مجملها متناقضة مع النظام المملوكي ومنظومته الاجتماعية التقليدية .

ويظل تاريخ أيام الولائم وعادة الضيافة العامة ، بعيداً عن أن يحظى بنفسه كحدث تاريخي ، لأنه يمثل في الأخير " قوة عادة" ، حددتها طبيعة مجتمع ، له ملامحه الخاصة . ويصح القول بأنه نوع من التاريخ البطيء المتسم بقوة التكرارية والثبات الذي يكاد أن يشكل جزءاً من الحياة البنيوية المادية والاجتماعية السائدة .

من حسن الحظ أن الفترة التقليدية التي ينهض هذا المقال بدراستها ، قد

توافقت مع الفترة التي عاصرها شيخنا عبد الرحمن الجبرتي ، صاحب أعظم مدونة في كتابة يوميات مثقف مهموم بمتابعة تغيرات المشهد الاجتماعي في مصر المحروسة . كان الجبرتي – كما هو معروف – يراقب ويرصد ملامح التغير في حياة أهل المحروسة ، فاستطاع بقلمه رسم صورة نابضة بدقائق الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة ، بعاداتها وتقاليدها ، سكونها وحركتها ، تنوع فئات الناس فيها وتقلب مراتبهم ومواقعهم فى الهرم الاجتماعي ، راصداً باحترافية دقيقة التباينات السلوكية والثقافية بين الريف والحضر ، بين البارزين داخل دائرة السلطة والفاعلين الاجتماعيين حولها ، والهامشين القابعين على تخومها أو أولئك المنبوذين خارجها . . .إلخ . وفى جملة واحدة رسم لنا بورتريه دينامي الحركة والتنوع ، في كل قسماته وملامحه ، تشتم من خطوطه المتقاطعة عبق الثقافة الاجتماعية المصرية الأصيلة .

إن مسألة "مد الأسمطة" (الموائد) في المجال العام ، وعادة الضيافة ، وما ارتبط بها من عادات وقيم أصيلة ، كانت أحد القضايا التي رصدتها عدسة الجبرتي المجهرية ، وهى ترقب أخلاقيات المصريين المحدثين وطبائعهم في تلك الفترة الحيوية من تاريخ مصر ، محدداً بحسه النقدي ، مثل تلك العادات ودرجة صمودها في مواجهة تحديات التغيير التي هبت على مصر أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر .

بيَّن الجبرتي أن الضيافة ومكارم الأخلاق ، وواجبات رعاية المسافرين ، والتكافل التلقائي مع الفقراء والمحتاجين ، كانت جزءاً أساسيًا من منظومة الحياة الاجتماعية المصرية . وهو يشير إليها في يومياته تحت عنوان ينبىء عن هذه الخاصية :" *مطلب كان لأهل مصر سنن وطرائق في مكارم الأخلاق لا توجد في غيرها*"(٣) . إن الجبرتي هنا كأنه يجيب قارئه عن سؤال ملح في زمانه ، حول استكشاف مكارم أخلاق المصريين ، وطبائع دورة حياتهم الاجتماعية والسياسية والفكرية . خلافاً

للجبرتي هناك كتابات أخرى معاصرة له أو جاءت بعد زمانه بقليل ، تناولت القضية نفسها . فقد اهتم علماء الحملة على سبيل المثال في كتاب "وصف مصر" بالوقوف على بعض عادات المصريين ؛ فكتب دى شابرول : " المصريون أسخياء بطبيعتهم ، بل مجبولون على فعل الخير . إن أولئك الذين استطاعوا منهم بفضل مكانتهم ونفوذهم وثروتهم ألا تنالهم مظالم وانتهابات الحكام الطغاة ، يعيشون فى بيوتهم فى أبهة وترف ويقومون عدة مرات فى العام بتوزيع الهبات والعطاءات"(٤) .

هذه الشهادة ليست بعيدة عما رصدته ريشة الرحالة الشهير إدوارد وليم لين (زار مصر بين عامي ١٨٣٣-١٨٣٥) ، وهو من أبرز من أولوا اهتماماً بدراسة طبائع وأخلاقيات المصريين المحدثين ؛ فقد استوقفته الظاهرة نفسها ، وأكد أن " حسن الضيافة" من شيم أهالي الشرق عامة ، وأن أبناء مصر يستحقون الثناء عليها ، وهم يعرفون الضيف أو الزائر الذي يحل فى ديارهم بـ "المسافر" . ولا تظنن أن المصرى يجلس لتناول طعامه وغريب فى منزله فلا يدعوه إلى مشاركة الطعام ، وإنه لمن الخزى والعار ؛ بل إنه انتهاك صارخ لقواعد الآداب أن يمتنع المسلم عن إعطاء الأمر بإعداد طاولة الطعام فى الوقت المحدد بسبب وجود زائر"(٥) .

بيد أن الجبرتي أبرز وعيه النقدي ، كمراقب ، للتباين بين ممارسة هذه الثقافة فى مجتمع المدينة الصاخب ، متنوع المشارب والأجناس والثقافات ، الذي تنخفض فى محيطه ، بدرجة ملحوظة ، الروح الجماعية والروابط والصلات الاجتماعية ، وبين واقعها المغاير فى الريف الهادئ ، الأكثر تسامحًا وتمسكًا بالتقاليد والأعراف وسنن التكافل الاجتماعي التلقائي التي جُبلت عليها الطبيعة الريفية ، بصورة تجاوزت مستوى الممارسات المقابلة لها في المجتمع الحضري .

أيام الولائم مواسم يترقبها الفقراء

بيَّن الجبرتي أن العطاء والكرم عند جماعة النخبة الحضرية ، التي يُعرفها بـ

"بيوت الأعيان" ارتبط ، فى معظم الأحوال ، بالمواسم الدينية ، وأطلق عليها اصطلاحاً " **أيام الولائم** " ، "مثل أيام أول رجب والمعراج ونصف شعبان وليالي رمضان والأعياد وعاشوراء والمولد النبوي الشريف ؛ فكانوا يطبخون فيها الأرز باللبن والزردة ، يملأون من ذلك قصاعا كثيرة ، ويفرقون منها على من يعرفونه من المحتاجين ويجتمع في كل بيت الكثير من الفقراء فيفرقون عليهم الخبز ويأكلون حتى يشبعوا من ذلك اللبن والزردة ويعطونهم بعد ذلك دراهم ، ولهم غير ذلك صدقات وصلت لمن يلوذ فيهم ويعرفون منه الاحتياج ، وذلك خلاف ما يعمل ويفرق من الكعك المحشو بالسكر والعجمية والشريك على المدافن والترب في الجمع والمواسم"(٦) . إنها حدث متكرر في كل عام أو بالأحرى تحولت إلى ما يشبه العادة المتكررة التي تجرى وقائعها بصورة منتظمة ورتيبة ، لكنها كانت من دون شك ، وبدرجة ما ، قادرة على أن تحدث توازنات مؤقتة ونسبية .

هذه العملية ذات الطابع الاجتماعي ، كانت تشكل جزءاً من المجال الاجتماعي العام ، يتقارب فيها الناس في مسألة تشغل الجميع ، وكل يسعى إلى تبادل المشاركة فيها ؛ انطلاقاً من وعي ديني واجتماعي – قبل حقوق الأفراد غير القادرين– بأهمية الحفاظ على هذه الدرجة من التكافل لذوي الحاجة ، في ظل غيبة مؤسسات نوعية ، ترعى هذه المسألة الاجتماعية ، وهذا من دون شك كان أحد ملامح الثقافة المادية التي سادت المجتمع ، والموروثة من تراث ضارب في القدم ، والذي اكتسب قوة واستمرارية من قوة طابعه التكراري لأنشطة الأفراد والجماعات ، حتى بداية التحديث الذي سيضع حداً لها بمرور الوقت على مدار القرن التاسع عشر .

إن فكرة المولد نفسها (كالاحتفال السنوي بمولد النبي أو موالد أهل الأضرحة من أولياء الله الصالحين والصوفية ومن إليهم) ، كان يمكن أن تتحول إلى موسم وعيد ؛ تولم فيها الولائم أياماً وليالي ، وكان ينتظرها كذلك الفقراء ويترقبونها . وكانت

السلطة المملوكية حريصة على احترام مخصصاتها العينية والمادية . وكان بيت السادة البكرية على سبيل المثال قائم على تنظيم الاحتفال بالمولد النبوي ، فهو مناسبةٍ دينية ، تتبوأ مكانة كبيرة في ذاكرة المجتمع . وعلى مستوى العائلات تعد مناسبة للم شمل الأسرة ؛ حيث تتجمع العائلات على موائد الطعام ويحضر الأهل والأصدقاء لترديد الأناشيد أو الأغاني التي تدور حول حياة النبي محمد (ﷺ) . كما تقام فعاليات في العديد من المدن التي تركز على أحداث حياة النبي وفقًا للقرآن والأحاديث .

وفى زمن الحملة الفرنسية ، لم يستطع بونابرت تفويت هذه المناسبة ، إذ وجد فيها وسيلة مهمة للتقرب من المصريين ، ونجده في مذكراته يشير إلى ذلك بوضوح : " كان لابد من التصالح مع الأفكار الدينية والابتعاد عن مهاجمة الرسول حتى لا يعتبر الفرنسيون أعداء للإسلام . كان من الضروري إقناع وكسب رجال الإفتاء والعلماء والشرفاء والأئمة لتأويل القرآن في صالح الجيش"(٧) . لذلك طلب من الجنرال مارمون Marmont في (أغسطس ١٧٩٨) أن يزور الشيخ البكري ليوضح له بأن القائد العام على قناعة تامة بقدسية دين الإسلام وعظمة النبي محمد ورقي مكانته(٨) . وطلبوا منه أن يقوم بتنظيم الاحتفال بالمولد الشريف ، وأمدوه بذات المخصصات المادية المعتادة . وبالفعل شهدت القاهرة احتفالا ًكبيراً ، كما طلب من كليبر بالإسكندرية أن يقيم احتفالاً مماثلاً : " أرجو أن تكون قد أقمت الاحتفال بالمولد النبوي بنفس الأبهة التى قمنا بها في القاهرة"(٩) .

بهذه المناسبة أعد الشيخ البكري مأدبة كبيرة تليق بصاري عسكر البلاد بونابرت ولكبار جنرالاته ، بذل في تنميقها وتنسيقها بكل ما عرف عن الشرقيين والمسلمين من الكرم والبذخ(١٠) . وتنقلنا شهادة استيف (مدير المالية في زمن الحملة) والذي كان أحد المدعوين ، إلى تفاصيل وليمة العشاء وترتيباتها الشرقية : " تلقى

القائد العام دعوة من الشيخ البكري لحضور هذا الحفل ، وقد صحبته الى هناك هيئة أركان حربه ، وكنت بالمثل في معيته . وقد لاحظنا أن العبادات كانت تقتصر على ترتيل رتيب لبعض آيات من القرآن ، وتلاوة نسب الشيخ البكري ، الذي يدل على أنه من أصلاب سلالة أبي بكر ، وبعد ذلك حصلنا على نصيبنا من عطاءات البن والحلوى . كنا نسلك سلوك المسلمين ، وقد تعشينا مع الشيخ ، ومع أولئك الذين شاركوا في الوليمة التي أولمت لنا ، وقدمت الاطباق على صواني واسعة من النحاس ، وأكلنا على طريقة الشرقيين ، لكن النبى حرمنا من نبيذ العشاء (أي لم يقدم لنا بسبب ما تقضي به الديانة الاسلامية) ودارت علينا المياه فشربنا كلنا من نفس البردق . وقد قسم المدعوون الى عدة مجموعات ، وكان يجلس مع الشيخ القائد العام والجنرال برتييه Bertier (في مجموعة مستقلة) ، وكانت لكل مجموعه صينية خاصة بها ، وتختلف هذه الطريقة في تقديم الطعام قليلا مع الاساليب المعتادة عند المصريين ، اذ تمر المائدة نفسها – في العادة – على التوالي لتنقل من السادة الى أهل البيت ، وهكذا حتى تصل الى الخدم"(١١) .

والحقيقة أن بونابرت سوف يقدر قيمة الفكرة الشرقية حول مد الموائد ، ودورها في التقارب من المجتمع . فقد استغل مناسبة العيد السابع للثورة الفرنسية ، وأقام احتفالاً خاصًا ، بمقر قيادته (بقصر الألفي بك) ، وأعد على طريقة الشرقيين "مأدبة عظيمة" ، دعا إليها نخبة الشيوخ والعلماء إلى جانب بعض أغاوات العثمانيين والمماليك ممن عملوا مع الجانب الفرنسي منذ بداية الاحتلال ، كما دعا نحو ٢٠٠ من القادة الجنرالات وكبار الضباط في الجيش(١٢) .

وخلافاً للاحتفال بالمولد النبوي ، كانت ثمة احتفالات أخرى ، تقام لموالد السادة الصوفية وأولياء الله الصالحين ، كانت مناسبات مشهود لها من قبل المجتمع كذلك ، ينتظرها الناس من عام لآخر ؛ مثل مولد السيد البدوي الذي يصفه الجبرتي :" بأنه صار عند أهل الإقليم موسماً وعيداً لا يتخلفون عنه ، إما للزيارة أو

للتجارة أو للنزاهة أو للفسوق ، ويجتمع به العالم الأكبر ، وأهالي الإقليم البحري والقبلي"[١٣] . كانت العطايا والولائم تمد ليل نهار ، واعتبر من بين أهم أيام الولائم في المجتمع المصري .

«إنها إذاً ممارسات موسمية لها صلة عميقة وأساسية بالبعد الديني أكثر من ارتباطها بالبعد الاجتماعي : فجماعات النخبة لم تكن تقبل على إحياء هذه العادات في كل مناسبة ، انطلاقاً من وعيها بضرورة مراعاة الفئات الضعيفة والهامشية التي رأيناها تهمل في أشد أوقات الأزمات الاجتماعية كالمجاعات والأوبئة ، دون أن تسعفها أو تنتشلها أيدي حانية . لقد كانت دوافع النخبة بالأحرى تتجه ، بمختلف مستوياتها ، إلى إعادة تمثيل نفسها ، واستعراض قوتها المادية ؛ كنخبة ثرية قادرة على التكفل بمد الأسمطة (موائد للعامة) ، لإظهار هيبتها ودرجة ثرائها وقدراتها المادية التي تبز بها غيرها في مجال التنافس الشرفي . إن مثل هذه "الولائم المجتمعية" وتكرارها في كل عام ، كان بمثابة إعادة تأكيد دورية للمكانة التي تحظى بها تلك الصفوة ، المستحوذة على قمة الهرم الاجتماعي .

خلافاً لهذه المناسبات العامة (ذات الطابع الديني) ، كانت جماعة النخبة من الأعيان والأمراء يحلو لهم خلق مناسبات أخرى ، يستعرضون فيها كرمهم الخاص وعطاءهم السخي على المتصلين بهم من مجموعات مؤثرة في الأوساط الشعبية ، على نحو ما لفت الجبرتي نظرنا إليه : فالأمير مراد بك مثلا (المتوفى فى العام ١٨٠١) حين بالغ فى عطاءاته الجزيلة للشعراء المادحين له ولسيرته ، والمقربين إليه كذلك من العلماء والشيوخ ، ممن كانوا بالنسبة له جهازاً إعلامياً ، ينشر من خلالهم ملامح خاصة للصورة التي يريد رسمها لنفسه فى عيون الرعية ؛ فنجد الجبرتي يشير إلى موائد الأمير مراد وكرمه ، بعبارة لا تخلو من سخرية :" اشتهر بالكرم والعطاء ؛ فقصده الراغبون ؛ وامتدحه الشعراء والغاوون ، وأخذ الشيء من غير حقه وأعطاه لغير مستحقه"[١٤] .

أرباب المظاهر وأرباب الاستحقاق : مساحة من التناقض المعيشي

إن وصف الجبرتي المتكرر لبكوات المماليك وكبار الأعيان المتصلين بهم ، والقاطنين بالمدينة بأنهم من " أرباب المظاهر"[١٥] ، لم يكن من قبيل الوصف المرسل الذي عمَّمَه على كبار بكوات المماليك أواخر القرن الثامن عشر ؛ ولكنه كان مقصوداً فى ذاته ؛ ومعبراً ، بالمقارنة مع أسلافهم المماليك ، عن مستوى جديد من الأبهة والإسراف . إنه المعنى الحرفي الذي قصده ثورشتاين فبلن ، الذي كان سبَّاقاً في رصد ملامح الطبقة المترفة والكشف عن مكوناتها في محاولة منه لوضع نظرية خاصة حول الطبقة الغنية أو المترفة (في عام ١٨٩٩) . لقد كان لفبلن الفضل في نحت اصطلاح دقيق ، يختزل كثير من التفاصيل ، وهو "الإنفاق الشرفي[١٦]" ؛ والمعني به التضحية والبذل اللذين تمارسهما جماعة النخبة (المحتكرة للسلطة والثروة) ؛ في سبيل تحديد المكانة واكتساب ملامح خاصة للوجاهة الاجتماعية ، لترسم به خصوصية "المقام" ، وتعين به حدودها كطبقة مترفة .

إن إسماعيل الخشاب (وهو أحد المراقبين المعاصرين للجبرتي) ، بيَّن أن بكوات أواخر القرن الثامن عشر ، بالغوا ، إلى حد كبير ، في إنفاقهم على " المظاهر" التي رسمت ملامح خاصة للطبقة المملوكية الجديدة ؛ فأشار إلى أن جماعة محمد بك أبو الذهب :" ترفهوا في ملابسهم ومأكلهم ومشاربهم ، وخرجوا عن موضوع من كان قبلهم من الأمراء المتقدمين"[١٧] . إن اصطلاح "أرباب المظاهر" يشير إلى جماعة محددة من الصفوة ، كانت تستثنى نفسها ، بكثير من الوجاهة والأثرة ، غير مبالية بالكتلة الاجتماعية الضخمة القابعة عند حدود الهامش ، تنتظر عطاياهم في زمن المناسبات والاحتفالات العامة .

وتظهر الدلالة ذات الطابع الاجتماعى لاصطلاح " أرباب المظاهر" فى تقاطعه مع اصطلاح آخر أطلقه الجبرتي على الفئات العامة وهو "أهل الاستحقاق"[١٨] . إنهم

أولئك الواقعون ، في معظمهم ، تحت أشكال مختلفة من الاستغلال والتهميش . وقد تعطينا المسافة الفاصلة بين "أرباب المظاهر" و "أهل الاستحقاق"[١٩] ، انطباعًا عامًا عن جانب من تعميق الفروق الشديدة بين المجموعتين ، بقدر ما تؤكد من جانب آخر على محدودية أنماط التكافل الاجتماعي السائدة فى ذلك الحين .

كان أهل الاستحقاق (وخاصة الشريحة الدنيا منها) يجدون عبر مناسبات أخرى بعض الانفراجة ، تأتي في سياق "الاحتفالات الاستثنائية" التي كانوا يترقبونها بين حين وآخر : مثل الاحتفال بختان أبناء الباشوات أو بعقد المصاهرات بين عائلات البكوات وكبار الأعيان ، وهى التي أطلق الجبرتى على بعضها كذلك "أيام الولائم" . إن هذا الاصطلاح لا يخلو من مغزى بالنسبة للفئات الضعيفة : فأغلب تلك المناسبات كانت بيوت الأعيان تقيم خلالها ما يسمى بـ "المهمات الفاخرة" والتى بعضها دام شهرًا كاملاً ؛ مثلما حدث فى مناسبة زواج إسماعيل بك من ابنة "إبراهيم كتخدا" (أستاذ على بك الكبير) فى سنة ١١٧٤هـ/ ١٧٦٠م ، التى اعتبرها الجبرتى واحدة من أهم "المهمات الجسيمة والمواسم العظيمة التي لم يتفق نظيرها بعده بمصر"[٢٠] . هذا الإنفاق التفاخري الزائد عن الحد ، وكأنه من ليالي ألف ليلة وليلة ، كان مقصوداً في حد ذاته ؛ للتأسيس لحدث اجتماعي تظل ذاكرة الناس تستدعيه في مسامراتها الخاصة ، حدث يؤكد رغبة النخبة العسكرية والاجتماعية في التأكيد على مكانتها وقوتها المادية في التكفل الواسع بوليمة عامة تستمر لعدة أيام .

فى مثل تلك المناسبات كان البكوات يغدقون على العامة بالعطايا ، ويقدمون الأطعمة والمشروبات والبقشيش . وتتزايد دائرة العطاء اتساعًا إذا ما تمت دعوة الباشا حاكم البلاد لحضور مثل هذا الاحتفال أو ذاك ، ففى هذه الحال كان لا ينتظر من الأخير أن يقدم هدية ثمينة للأمير فحسب ، وإنما كذلك كان يبذل مبلغًا كبيرًا ، يليق

بمكانته كأعلى رأس فى السلطة أكثر من تعبيره عن مكانة الأمير المملوكى صاحب العرس . وكان يُطلق على هذا المبلغ "رسم تفرقة" ؛ حيث كان يودعه بين يدى الأمير فى منديل ، ليتم توزيعه على الخدم وكل المشاركين فى إقامة العرس من الفئات الحرفية ، أمثال أرباب الملاعيب أو أرباب الملاهي والبهلوانيين والطباخين والمزينين والمهتارية والخيالة ومن إليهم . . .إلخ " . كذلك الحال مع من يحضر من الأمراء البكوات للتهنئة ، كانت تقدم الهدايا ثم يتلوها قيام الأمراء ، وبنوع من المباهاة وإظهار التقدير للمحتفى به ، بتوزيع "المحارم والمناديل" بأنفسهم على الحاضرين لهذا العرس(٢١) . ومن السخرية أن هذه العطايا بدت كأنها تعيد للمجتمع بعضاً مما نهبته بصورة منتظمة أو غير منتظمة طبقة العسكر من البكوات واتباعهم المماليك .

وثمة احتفالات أخرى كختان الأبناء ، كان الباشوات وكذا الأمراء البكوات يسمحون بختان أبناء الفقراء مع أولادهم ، وهو نوع من الشرف كان المصريون يفخرون به لأبنائهم ، وبصرف النظر عن ذلك ، كانت المناسبة تتيح فرصة للعامة لنيل بعض الإنعامات والمأكولات والدراهم من نخبتها المملوكية التي بدورها كانت ترى في مثل هذه المناسبات والإنعامات " رمزية الاندماج" في المجتمع ، وتقربها إلى فئاته الشعبية العريضة . لقد مثل لها ذلك أكبر دعاية اجتماعية للبيوت المملوكية كما للباشوات العثمانيين في مثل تلك المناسبات الدورية .

وتختفي فى الغالب ، خارج هذه المناسبات الخاصة والاستثنائية ، إنعامات الكبار وعطاياهم المادية : فقد كان الأمراء البكوات ، حين يمدون السماط يومياً ، أمام " الرحبة الخارجية " لقصورهم – بسبب كثرة أعدادهم(٢٢) – وقتي الغذاء والعشاء ، يرمقهم الفقراء من بعيد ؛ من دون أن يجرؤ أحدهم على الاقتراب من موائدهم ، فالحرسجية من القواسة والخدم كانوا مكلفين بالحيلولة دون اقتراب العامة من قصور البكوات وخاصة وقت إقامة موائد الطعام اليومية التي يسمع فقراء العامة ضجيجها

من بعيد ، فتتلظى نار غيظهم ، وتزداد مرارة وحقداً ؛ جراء قسوة هؤلاء الحرسجية الأشداء!

بيد أن شريحة من الفقراء ، فى بعض الأحيان ، لم تعدم الوسيلة التي حاولت بها اختراق هذا الحظر من خلال التحايل على الحرسجية البوابين : فقد رصد لنا اسماعيل الخشاب واحدة من الحوادث النادرة التى أمكن لحرفى فقير الفوز بمقعد على مائدة أحد كبار البكوات المشهورين وهو " اسماعيل بيك بن إيواظ بيك" (١٧٣٥-١٧٩١) : فقد كان هذا الأمير معتاداً في شهر رمضان ، من كل عام ، كما هى "عادة أهل مصر" ، على جمع العلماء والشيوخ والفقهاء لكى يتلون القرآن الكريم ، فلما حاول الحرفي الطفيلي اقتحام منزل الأمير ومزاحمة المدعوين على سماطه ، زجره الحراس ومنعوه من الدخول ، فلم يجد سبيلا سوى التحايل من خلال استعارة حلية وجهية "بزى الفقهاء" ، حصل عليها من قاضى باب سعادة الذى كان له به سابق معرفة ، فلم يعرفه حرس الأمير ، لكنه بعد أن التهم الطعام ، حاول الإسراع بمغادرة المكان ، بيد أن الأمير واتباعه لاحقوه وزادوا فى كرمه حتى عاد ، وطالبه الأمير عندئذ بقراءة ما تيسر من القرآن ، فأسقط فى يد الأمير ، واضطر إلى الاعتراف بحيلته : أنه " أمى لا يقرأ ولا يكتب . . . وأنه رجل طفيلى دعته شهوة الطعام إلى ذلك . . . وأنه يتوب ولن يعود لمثل ذلك ، فضحك الأمير إسماعيل ، وأمره بملازمة بيته فى كل ليلة![٢٣]" . إن مغزى هذه الرواية الاستثنائية أنه ما كان لأحد من العوام الفقراء اقتحام موائد أهل اليسار بسهولة ، وأن غالبيتهم كان يتلظى من متابعة مشهد السماط الممتد للبكوات وأتباعهم الذين كانت قصورهم تضيق عن استيعابهم وقت الطعام .

إن اللحظة الاستثنائية الوحيدة التي كان يسمح خلالها بكسر هذا الحظر ، تُعطى للشخصيات الجادة غير المتطفلة ، التي تسعى لقضاء بعض حاجاتها لدى الأمير ؛ لأنهم بالطبع لم يأتوا بغرض المزاحمة على مائدته ؛ وفى هذه الحال ، كان من

التصرفات الشائنة أن يمنع "المسودَّة"(٢٤)– وهم القائمون على خدمة السماط والمائدة – مثل هؤلاء الأشخاص ، يقول الجبرتى :" يقف الفراشون في وسطه (أى السماط) ، يفرقون على الجالسين [من اتباع السيد] ويقربون إليهم ما بعد عنهم من القلايات والمحمرات ، ولا يمنعون في وقت الطعام من يريد الدخول أصلاً ، ويرون أن ذلك من المعايب ؛ حتى أن بعض ذوي الحاجات عند الأمراء إذا حجبهم الخدام انتظروا وقت الطعام ، ودخلوا فلا يمنعهم الخدم في ذلك الوقت ، فيدخل صاحب الحاجة ويأكل وينال غرضه من مخاطبة الأمير ؛ لأنه إذا نظر على سماطه شخصًا لم يكن رآه قبل ذلك ، ولم يذهب بعد الطعام ، عرف أن له حاجة فيطلبه ويسأله عن حاجته ، فيقضيها له ، وإن كان محتاجًا واساه بشيء"(٢٥) .

وكان على هذه النخب الاجتماعية أن توفر تحت يدها مصادر متعددة لدخولها ، حتى تتمكن من تغطية كلفة هذا الاستعراض الشرفي ، والتكفل بالأبهة التي ترسم بها شخصيتها ، وبأيام الولائم ، باهظة التكاليف ، كي تحافظ على مكانتها وموقعها في التراتبية الاجتماعية . ومن هنا كانت أعمال النهب الواسع والاحتكارات والمكوس والفرد والمظالم ومصادرة أخصب أراضي الالتزام والتوسع في ضمها تحت نفوذهم ، قد مثل ظاهرة فجة . وحين فاض بالناس في إحدى الوقعات المثيرة التي قادها شيخ أزهري (صيف سنة ١٧٩٥) طالبوا المماليك بإبطال المظالم والمكوس ، ووفقاً للجبرتي – الذي سجل هذا الحوار– كان رد البكوات عليهم : " إننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات" فقيل لهم :" هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس ، وما الباعث على الإكثار من النفقات وشراء المماليك ، والأمير يكون أميراً بالإعطاء لا بالأخذ"(٢٦) . كانت هذه الصرخة إدانة لمجتمع أرباب المظاهر وأهل البذخ والترف . لكنها صرخة ذهبت سدى ؛ إذ عاد البكوات ومماليكهم بعد أقل من شهر إلى ممارساتهم القديمة!(٢٧)

عادة الضيافة في الوسط الريفي

بعيداً عن بيوت الأعيان وكبار البكوات المماليك ، يقترب بنا إدوارد وليم لين من صورة مغايرة ، لدى أبناء الطبقة المتوسطة والدنيا (الحضرية) ، صورة تعبر عن عادة تلقائية ؛ إذ كان من الشائع كذلك "تناول العشاء أمام أبواب المنازل ، وخصوصاً إذا كانت البيوت منعزلة ، فيدعون كل مار مهيب الطلعة إلى مشاركتهم الطعام"(٢٨) .

بيد أن "عادة الضيافة" تظهر بوضوح أكثر ، وفى إطار من التقاليد المتوارثة والمتأصلة فى التكوين الاجتماعى والثقافى فى الريف المصرى ، وهو ما تفيض به كلمات الجبرتي :" إن أهل القرى والأرياف فيهم من مكارم الأخلاق ما لا يوجد في غيرهم من أهل قرى الإقليم ، فإن أقل ما فيهم إذا نزل به ضيف ، ولو لم يعرفه اجتهد وبادر بقراه في الحال وبذل وسعه في إكرامه وذبح له ذبيحة في العشاء"(٢٩) . هذه التلقائية المعبرة عن سجية الريفى الأصيل ، مقارنة بأهالي المدن الكبيرة ، أدهشت المستشرق إدوارد وليم لين ، والذى راق له تفسيرها فى إطار تعاليم الدين الحنيف ، استناداً إلى قصة استضافة نبي الله إبراهيم (عليه السلام) للملائكة كما ورد فى التوراة والقرآن الكريم ، وأن السُّنة تتيح طلب الضيافة من أى شخص قادر على استقباله لمدة ثلاثة أيام . وبيَّن أن أهالى الريف وكذا بدو الصحراء يسارعون إلى استضافة كل من ينزل بهم :" فالشيخ يأمر زوجته أو غيرها من النساء فوراً بإعداد الخبز وذبح خروف أو أى حيوان آخر وطهوه بسرعة . وفى غمضة عين يحضر الحليب وألوان الطعام الأخرى إضافة إلى الخبز واللحم المشوي أمام الضيوف الكرام الذين يطأون أهلاً ويحلون سهلاً" . وعزا غياب "عادة الضيافة" هذه عند أهالى المدن الكبيرة "إلى توفر الوكالات والخانات ؛ حيث يمكن للغريب المبيت فيها والحصول على الطعام بكل سهولة ، عكس الغريب إذا وصل إلى إحدى القرى يحل ضيفًا على شيخ القرية أو أحد سكانها"(٣٠) .

وكانت الدولة قد استودعت تحت يد شيوخ القرى مساحات كبيرة من الأطيان الزراعية ، عُرفت بـ"مسموح المشايخ" أو " مسموح المصطبة" ، خُصص ريعها للإنفاق على "واجب الضيافة" لكل مَن ينزل بقراهم من المسئولين والوجهاء "السفار والأجناد" . وقد ورثها شيوخ القرى خلفًا عن سلف(٣١) . وتباينت مساحاتها من قرية إلى أخرى ، وأيضًا بحسب نفوذ شيوخ القرى وقوة عائلاتهم ، وتمسكهم بهذا الدور وقيامهم بأعبائه . ويخبرنا الجبرتى فى قصة الشيخ عارف ، شيخ سوهاج ، بأن مسموحه من الأطيان بلغ ٦٠٠ فدانًا ، وأن هذه المساحة الكبيرة كانت مخصصة لعائلته على مدار عدة أجيال ؛ نظير بقاء منزلهم مفتوحًا أمام المسافرين من جميع الطبقات " الأكابر والأصاغر والفقراء والمحتاجين ، فيقرى الكل بما يليق بهم ويرتب لهم التراتيب والاحتياجات ، وعند انصرافهم بعد قضاء أشغالهم يزودوهم ويهاديهم بالغلال والسمن والعسل والتمر والأغنام وهذا دأبه ودأب أسلافه من قبله على الدوام والاستمرار"(٣٢) . لقد استمر منزله مفتوحاً لاستضافة المسافرين من جميع الطبقات لعدة أجيال ، ربما باستثناء عهد محمد على باشا ؛ سوف يتعرض بيت الشيخ عارف للتضييق عليه .

وفى خط متوازٍ مع "مسموح المشايخ" ، كانت هناك مساحات كبيرة أخرى من الأراضى ، بعضها أوقاف ، والبعض الآخر رزق إحباسية ، رصدها الأهالى للإنفاق على أوجه البر والصدقة ، وكانت جميعها تُدرج تحت بند "مصارف الولاية"(٣٣) . ويقول الجبرتى أن أهلى الخير المتقدمين رتبوها لأربابها "رغبة منهم في الخير وتوسعة على الفقراء والمحتاجين وذوي البيوت والدواوير المفتوحة المعدة لإطعام الطعام للضيفان والواردين والقاصدين وأبناء السبيل والمسافرين"(٣٤) .

لقد كان أهالى الريف يعبرون ، فى الحقيقة ، عن تراث مستمر من العادات والتقاليد المحلية التي استطاعت دمج المجتمع الريفى بعضه ببعض ، بصورة غابت معها

نسبيًا حدة الانفصالية/ والروح الفردية والتظاهرية الملحوظة فى المجتمع الحضرى . وقدم الجبرتى فى حولياته نماذج عديدة للشخصيات التي ذاع صيتها فى الكرم وحسن الضيافة فى الريف المصرى كشيوخ الحبايبة والهوارة . ويبدو شيخ العرب همام الصورة الأبرز بين النماذج التي دون لها الجبرتى باهتمام ملحوظ ، فيقول فيه :" همام وما أدراك ما همام . . . من الناس من كان يذهب إليه في كل سنة ويرجع بكفاية عامه ، وهذا شأنه في كل من كان من الناس وأما إذا كان الوافد عليه من أهل الفضائل أو ذوي البيوت قابله بمزيد الاحترام وحياه بجزيل الإنعام . وكان ينعم بالجواري والعبيد والسكر والغلال والثمر والسمن والعسل . وحاله فيما ذكر من الضيفان والوافدين والمسترفدين أمر مستمر على الدوام لا ينقطع أبداً . وكان الفراشون والخدم يهيئون أمر الفطور من طلوع الفجر فلا يفرغون من ذلك إلى ضحوة النهار ، ثم يشرعون في أمر الغداء من الضحوة الكبرى إلى قريب العصر ثم يبتدئون في أمر العشاء وهكذا . وكان له صلات وإغداقات وغلال يرسلها للعلماء وأرباب المظاهر بمصر في كل سنة وكان ظلاً ظليلاً بأرض مصر"(٣٥) . ومن هنا نفهم لماذا تأسف المصريون طويلا على النهاية المحزنة لهذا الشيخ على يد على بك الكبير ومماليكه .

الدولة الحديثة وترشيد نفقات الضيافة والاستقبال

شكل مجيء الحملة الفرنسية استمرارية بدرجة أو بأخرى لقيم وعادات المجتمع ، التي حرص الفرنسيون على عدم المساس بها ، وخاصة ما ارتبط منها بالدين أو التنظيم الاجتماعي . وأبدوا احترامهم للأوقاف وللأراضي المخصصة لجهات البر والضيافة بما في ذلك مسموح المشايخ .

على حين تبدل الوضع مع مجىء الدولة الحديثة ، فى عصر محمد على باشا ، الذى استندت سياسته إلى فلسفة مختلفة ، تقوم على زيادة الإنتاج والموارد فى

مقابل ترشيد النفقات وأوجه البذخ ، وبما يتناسب كذلك - وهو الأهم - مع حجم المشروعات العمومية التي كان ينهض بها الباشا ، التى كلفت الخزينة أموالاً طائلة ، جعلته يغير من طريقة الإنفاق الشرفى والاحتفالي ، واختزال عدد المدعوين ، فى المناسبات والاحتفالات ، من خلال "أوراق التنابيه" التي كان يرسلها إلى جماعة النخبة والأعيان المرتبطين به وبمشروعاته : فـ" مطبخ الميرى صارت الأطعمة تؤتى منه لأرباب المظاهر ، في وجبتي الغداء والعشاء خلاف المطابخ الخاصة بهم وما يأتيهم من بيوتهم . . .أما أهل الاستحقاق فقد " ظلوا يتلظون من القشل[٣٦] والتفليس مع ما هم فيه من غلاء الأسعار في كل شيء"[٣٧] .

ومن الواضح أن عقلية جيل الجبرتي لم تستوعب بعد توجهات محمد على باشا المتمركزة على توفير أكبر إمكانات مادية للخزينة ، حيث المشروعات التي يفكر فيها تحتاج إلى أموال كثيرة وخلق موارد جديدة . ولذا نجده يصف محمد على باشا بأنه" من طبعه الحقد والحسد والتطلع لما في أيدي الناس " . لقد قال الجبرتي هذه العبارة بمناسبة ما قرره محمد على باشا من غرامة كبيرة على أحد موظفي الروزنامة (ويدعى احمد أفندي ججرت) لأنه حين آتاه بدفتر الفرضة بأسيوط ، وشاهد هيئته الضخمة المتأنقة ، أخذ يترقبه عبر عيونه الذين اخبروه أن " بيته مفتوح للضيفان ويجتمع عنده في كل ليلة عدة من الفقراء يثرد لهم الثريد في القصاع ويواسي الكثير من أهل العلم وغيرهم"[٣٨] . وهو ما اعتبره محمد على دليل على غني أفندية الروزنامة وإسرافهم ، فقرر تقليم أظافرهم . إن أفندية الروزنامة المتبقيين من عصر البكوات ، باتوا تحت المجهر يرقبهم النظام الجديد ، ولا يسمح لهم بالتظاهر بالعطاء والبذل للفقراء . لقد بدا أن محمد على باشا يفرض على العناصر البيروقراطية الكلاسيكية التخلي عن ثقافة العطاء والبذل بغير حساب ، تلك العادة التي كانت جزءاً أساسيًا من الممارسات شبه اليومية المعتادة فيما قبل القرن التاسع عشر ، وأن

الدولة أولى بما ينفقونه في جهات صرف يمكن اختزالها حتى ولو كان ذلك على حساب الفئات الفقيرة أو المعدمة . لقد شكَّل ذلك تغيراً واضحاً في مفهوم السلطة لـ " ايديولوجيا الاستهلاك" .

مثَّل ذلك نقطة فارقة بين عصر البيوت المملوكية وكبار الأعيان القائم على فلسفة الإنفاق الشرفي ، وبين عصر الدولة المركزية القائم على فلسفة الترشيد . إن أيام الولائم العامة التي كان يترقبها الفقراء والعطاءات شبه اليومية بدت في نطاق ضيق . وتأكد للناس ذلك ، حين جاءت مناسبة زواج أبناء محمد على باشا ، ليجدوا الأحتفالات تتم في نطاق النخبة من رجاله وكبار موظفيه ، وداخل دائرة ضيقة منهم ، وصارت تُحدد بإرسال" أوراق التنابيه للمدعوين على طبقات الناس بالترتيب" . لم يعد الأمر مشاعًا ، يطرح للعوام نصيبًا فى مطابخ الميرى فى الاحتفالات والمناسبات العمومية كما كان في السابق .

كذلك الحال مع أهالى الريف : فقد صُودرت أراضى الرزق والأوقاف الخيرية المرصدة على أعمال البر وإطعام المساكين والمحتاجين ، وضُمَّت للميري[٣٩] ، ورفض إبراهيم باشا شفاعة العلماء فى ذلك ، ورد عليهم بقوله :" يشترون ما يأكلون بدراهم من أكياسهم أو يغلقون أبوابهم ويستقلون بأنفسهم وعيالهم ، ويقتصدون فى معايشهم ، فيعتادون ذلك ، وهذا الذى يفعلون تبذير وإسراف ، والديوان أحق بهذا . . ."[٤٠] .

وفيما يتعلق "بأطيان مسموح المشايخ" فقد أبقى عليها ، لكنه حدد مساحتها بـ ٥ ٪ في نظير قيام الشيوخ بأعباء إدارة القرية ، وكذا نظير ضيافتهم لرجال الباشا وكبار مسئولي حكومته[٤١] . إن بيت الشيخ عارف شيخ سوهاج بالصعيد الذي سبقت الإشارة إليه ، تعرض هو الآخر لهذا التضييق الشديد ، وقرر إبراهيم باشا ألا يفرج له من ٦٠٠ فدان سوى عن ١٠٠ فدان ، ويقول الجبرتي أن ذلك تم " بعد التوسط

والترجي والتشفع" ، كما بين بأن محمد على فعل مثل ذلك بجميع أقاليم الصعيد[٤٢] . وفيما بعد في عهد سعيد باشا ، تحديدا في عام ١٨٥٧ سوف يفرض على جميع مسموح المشايخ ضريبة ، ثم انتزعها منهم كلية في العام التالي ١٨٥٨[٤٣] .

وضعت الدولة المركزية إذن حداً لاستمرارية تقاليد المجتمع الوسيطي ، فحاصرت كثيراً من العادات والطقوس التي كانت مرتبطة بالضيافة العامة واحتفالات مد الموائد والأسمطة ، عاملة " بمبدأ الترشيد "تارة ، ومعلنة عن إحلال الدولة المركزية محل البيوت المتنفذة القديمة التي كانت تتوزع السلطة وتبدد الموارد فيما بينها تارة أخرى . لذلك كان مما سهل إجراءات هذا التغيير الصعب ، قضاء محمد على باشا على طبقة الأمراء المماليك في عام ١٨١١ ، ومصادرة أراضي الالتزام الخاصة بها[٤٤] ، مما أضعف طبقتهم الاجتماعية وأفقرها . من ناحية أخرى ، عمل محمد على باشا على تضييق الخناق على كبار الأعيان والوجهاء (من تجار وشيوخ وعلماء وأفندية) ، وفرق صفوف العلماء والمشايخ بتأليب بعضهم على البعض[٤٥] ، وأحكم محاسبتهم . أحدث هذا تغيراً بنيويًا في الطبقة الاجتماعية وتوجهاتها التي كانت ترعى التقاليد المتوارثة بشأن العطاءات العامة ومد الموائد والأسمطة في مواسمها المعهودة .

ولا شك أن التغير الاجتماعي في تكوين جماعة النخبة الجديدة سوف يتسبب في تغييرات متفاوتة بمرور الوقت في منظومة العادات والقيم والطقوس ، وفقًا لتوجهات الدولة المركزية الجديدة وإنعاماتها من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، حال الطبقة النخبوية الجديدة وحدود ثقافتها وقيمها الخاصة ، وما كانت تؤمن به إزاء المجتمع . تلك الطبقة الجديدة التي أعاد خلقها نظام محمد على باشا وأحسن توظيفها في توجهات سياسته الرشيدة البعيدة عن صور موائد البذخ وصنوف الاستهلاك المملوكي غير المنتجة . إن مدونات الجبرتي كانت بحق آخر شهادة تاريخية معاصرة

على تلك الفترة من التحول البنيوي الثقافي والاجتماعي التي من دون شك سجل بقلمه كثيراً من ملامحها على مدار ما يربو على النصف قرن . وفى المجمل يتبين أن أيام الولائم وعادة الضيافة بقدر ما ازدهرت في ظل المجتمع التقليدي (أيام المماليك) ، بقدر ما ضاق نطاقها ، وتغيرت طبيعة ممارستها فى الفضاء الاجتماعي الرسمي في القرن التاسع عشر .

الهوامش

(١) كان عقد أول مؤتمر علمى فى أكسفورد فى عام ١٩٨١ ، وصدر عن دار نشر كمبردج عام ٢٠٠٠ كتاب مهم حول هذا المجال وقدم له عرضًا نقديًا ريمون سوكولوف ، راجع :

The Cambridge World History of Food, edited by Kenneth F. Kiple and Kriemhild Conee Ornelas (Cambridge University Press, 2000, Review by Raymond Sokolov,https://archive.is/20120708115851/findarticles.com/p/articles/mi_m1134/is_9_109/ai_67410994.

(٢) من أحدث الدراسات وأعمقها حول أنثروبولوجيا الطعام دراسة كارول م . كونيهان التي تمت ترجمتها مؤخراً بالقاهرة ونشرها المركز القومي للترجمة تحت عنوان : أنثروبولوجيا الطعام والجسد ، النوع والمعنى والقوة ، ترجمة سهام عبد السلام ، الإصدار رقم ١٧٧٩ ، ط ١ ، القاهرة ٢٠١٣ .

(٣) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، دار الوثائق والكتب المصرية ، القاهرة (أربعة أجزاء) ، ج ١ ، ص ٣٣٩ -٣٤٠ .

(٤) ج . دى شابرول : المصريون المحدثون ، وصف مصر ، مج ١ ، طبعة مدبولي ، الطبعة الثانية ١٩٩٨ ، ص ١١٧ .

(٥) إدوارد وليم لين : عادات المصريين المحدثون وتقاليدهم (مصر ما بين ١٨٣٣- ١٨٣٥) ، ترجمة سهير دسوم ، مكتبة مدبولي القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٩١ ، ص ٢٩٧ .

(٦) عبد الرحمن الجبرتي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٤٠ .

(٧) مذكرات نابليون ، الحملة الفرنسية على مصر ، تقديم تييري لينتيز ، ترجمة عباس أبو غزالة ، المشروع القومي للترجمة ، الإصدار رقم ٣٢١٨ ، القاهرة طبعة أولى ٢٠١٩ ، ص ١٦٤ .

(8)Correspondance de Napoléon Ier. publiée par ordre de L,Empereur NAPOLÉON III, Paris, Imprimerie Impériale , 1858, Tome 5 . No. 3147.

(٩) من بونابرت الى الجنرال كليبر ، (بتاريخ ٢٨ أغسطس ١٧٩٨) ، في : الأوامر العسكرية اليومية لنابليون بونابرت في مصر (١٧٩٨-١٧٩٩) ، ترجمة أحمد يوسف ، جزآن ، المجمع العلمي المصري ، القاهرة ٢٠١٥ ، ج ١ ، الرسالة رقم٢٩٨١ ، ص ٣٤٢ .

(١٠) أدوار جوان : مصر في القرن التاسع عشر ، سيرة جامعة لحوادث ساكني الجنان محمد على باشا وإبراهيم باشا من الوجوه الحربية والسياسية والقصصية ، تعريب محمد مسعود ، القاهرة ط١ ١٩٢١ ، ص ١٤٠ .

(١١) استيف : وصف مصر ، النظام المالي والإداري في مصر العثمانية ، ترجمة زهير الشايب ، دار الشايب ، القاهرة ١٩٧٩ ، ج ٥ ، ص ٢٣٢ ، (هامش ١) .

(١٢) أدوار جوان : المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

(١٣) الجبرتي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣ .

(١٤) نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٧١ .
(١٥) نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٦٢ .
(١٦) ثورشتاين فبلن : نظرية الطبقة المترفة ، ترجمة محمود محمد موسى ، مراجعة إبراهيم سعد الدين ، سلسلة من الفكر السياسي ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة الاشتراكي ، د .ت .
(١٧) اسماعيل الخشاب : أخبار أهل القرن الثاني عشر ، تحقيق عبد العزيز جمال الدين وعماد أبو غازي ، العربي للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٠ ، ص ٥٨ .
(١٨) والجبرتي لا يقصد بأهل الاستحقاق الفئات الفقيرة والضعيفة فحسب ؛ولكنه يُضمنه أهل الفقه والشيوخ العلماء الذين انشغلوا بالعلم عن طلب الرزق .
(١٩) يعطى الجبرتي مقاربة صارخة بين أرباب المظاهر ، وأهل الاستحقاق ، خلال ولائم يوم عاشوراء سنة ١٢٣٤هـ / ١٨١٨ ، راجع الجبرتي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٦٢ -٤٦٣ .
(٢٠) الجبرتي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٣٤ .
(٢١) مثلما قام الأمير مراد بك فى حفل زواج ابنة اسماعيل بك ، يقول الجبرتي : «ووقف مراد بك وفرق المحارم والمناديل على الحاضرين وهو يطوف بنفسه على أقدامه» . راجع الجبرتى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣ (١١٩٠/ ١٧٧٧) .
(٢٢) على سبيل المثال كان عدد اتباع محمد بك الألفى قرابة الألف مملوك خلاف ما يملكه كشافه البالغين اربعين كاشفا! راجع الجبرتي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٩ .
(٢٣) اسماعيل الخشاب : المصدر السابق ، ص٣٤ – ٣٥ .
(٢٤) أوليا جلبى : سياحتنامة مصر ، ترجمة محمد عونى ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ٢٠٠٣ ، ص ٢٣٠ .
(٢٥) الجبرتي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٤٠ .
(٢٦) الجبرتي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٨٩ -٣٩٠ (الحجة ١٢٠٩ / ١٧٩٥) .
(٢٧) إسماعيل الخشاب : المصدر السابق ، ص ٥٩ .
(٢٨) إدوارد لين : المرجع السابق ، ص ٢٩٧ .
(٢٩) الجبرتي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٤٠ .
(٣٠) إدوارد لين : المرجع السابق ، ص ٢٩٧ .
(٣١) الجبرتي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٤٠ .
(٣٢) الجبرتي : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٩١ .
(٣٣) نفسه .
(٣٤) نفسه .
(٣٥) الجبرتي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥٣٨ .
(٣٦) القشل : كلمة مصرية عامية مبتذلة ، تعنى الخيبة والفقر . إن هذه المقاربة التي رصدتها عدسة الجبرتي ، تظهر قناعات الدولة المركزية الحديثة التي تبالغ في مظاهر الاحتفال ، فيما الكثيرون من

أهالى المجتمع يتلظون من قسوة غلاء المعيشة!

(٣٧) الجبرتي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٦٢- ٤٦٣ (حوادث محرم ١٢٣٤ هـ) .

(٣٨) يقول الجبرتي : إنه لما سافر أحمد أفندي إلى الباشا بدفتر الفرضة إلى ناحية أسيوط طلع إلى البلدة في هيئة وصحبته فرش وسحاحير وبشخانات وكرارات وفراشون وخدم وكيلارجية ومصاحبجية والحكيم والمزين فلما شاهد الباشا هيئته سأل عنه وعن منصبه فقيل له إنه جاجرت من كتبة الروزنامة فقال إذا كان جاجرت بمعنى تلميذ فكيف يكون باش جاجرت أو قلقاوات الإقليم فضلاً عن كبيرهم الروزنامجي وأي شيء ذلك ، وأسر ذلك في نفسه ، وطفق يسأل ويتجسس عن أحوالهم لأنه من طبعه الحقد والحسد والتطلع لما في أيدي الناس . الجبرتي : المصدر السابق ، ج ٤ ص ١٨١- ١٨٢ . (١٢٢٥/ ١٨١٠) .

(٣٩) حول تفاصيل مصادرة أراضي الرزق والأحباس والاوقاف المرصدة على جهات البر والضيافة انظر على بركات : تطور الملكية الزراعية في مصر ١٨١٣- ١٩١٤ وأثره على الحركة السياسية ، دار الثقافة الجديدة القاهرة ١٩٧٧ ، ص ١٦ - ٣١ .

(٤٠) الجبرتي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٩١ .

(٤١) جبرييل بيير : المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

(٤٢) الجبرتي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٩١ .

(٤٣) جبرييل بيير : المرجع السابق ، ص ١١١ .

(٤٤) رءوف عباس : الملكيات الزراعية المصرية ودورها في المجتمع المصري ١٨٣٧ -١٩١٤ ، الطبعة ٢ ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ١٢ (نسخة الكترونية على موقع المؤلف .(www.RaoufAbbas.org

(٤٥)رءوف عباس : تطور المجتمع المصري في القرن التاسع عشر ، القاهرة د .ت ، ص ٤٦ (نسخة الكترونية على موقع المؤلف .(www.RaoufAbbas.org